سينما

"النادي اللبناني للصواريخ" يطلق الأحلام والهزائم

يعود الثنائي جوانا حاجي توما وخليل جريج مع "النادي اللبناني للصواريخ" (وثائقي، 95 د) الى موضوع يبدو متواضعاً ظاهرياً، بعد مرور خمسة اعوام على "بدّي شوف"، فيلمهما مع كاترين دونوف. بعد المعاينة المتأنية، يتبدى جلياً انه يحمل همّاً اجتماعياً معطوفاً على همّ السينما، وهذا ما يجعل المشروع برمته امتداداً منطقياً لهوس المخرجين للتفكير في الذاكرة، في منطقة شبه منكوبة. في بداية الستينات، مجموعة مغامرين على رأسهم مانوغ مانوكيان، الآتي من فلسطين، يتحلقون حول مشروع حلم: اطلاق صواريخ. الأيادي أجنبية لكن الصناعة وطنية تحمل العلم اللبناني. بعض الصواريخ ينجح في أن يكون حقل اختبار وبعضها الآخر يقع في قبرص، ما سيضع حداً نهائياً للمشروع. يجوب الفيلم في ثغر الوعي واللاوعي، ساعياً الى ربط الفصول المختلفة من تاريخ لبنان والمنطقة في صيغة متشعبة تكشف كل ما يضمره المخرجان في وجدانهما السينمائي. من خلال نصّ مشيد على فكرة التضاد، نصر مقابل هزيمة، نسيان مقابل توثيق، فردية مقابل جماعة. يقول المخرجان ما كان يمكن ان يكون مجرد رحلة بين زمنين وقارتين، الى صرعة الموسم السينمائي في بيروت: شيء منفلت من اي تصنيف يتأرجح بين الثقافة المضادة وردّ الاعتبار الأخلاقي الى اكثر الناس جرأة على الحلم.

جوانا حاجي توما وخليل جريج: أردنا استرداد المعاني

هوفيك حبشيان

■ ما الذي حملكما الى حكاية النادي اللبناني للصواريخ؟

- خليل: عام 2001، كانت جوانا تجري ابحاثاً عن مرحلة فؤاد شهاب، فاكتشفت ان مجموعة من الناس اطلقوا صواريخ لغايات علمية. في البداية لم نصدّق. خلناها نكتة. ثم بدأنا نسأل من حولنا

جوانا حاجي توما وخليل جريج.

- جوانا: اكتشافي لهذه الحكاية محض مصادفة. كانت شقيقتي تنجز مجموعة افلام عن تاريخ لبنان الحديث عندما أخبرتني عن وجود المشروع الفضائي اللبناني. ثم، وجدنا كتاباً صادراً عن "المؤسسة العربية للصورة" من تأليف أكرم زعتري عن المركبات في العالم العربي. وجدنا فيه صفحتين عن النادي اللبناني للصواريخ. لكن كان هناك فقط صور وبعض البطاقات البريدية التي رُسمت عليها صواريخ بألوان العلم اللبناني، خلفها القمر. ثمّ مرت الأيام، انجزنا أفلاماً اخرى، الى ان عدنا الى المشروع عام 2009، بعدما ظل ماثلاً فينا طوال السنوات تلك. كنا نريد ان نعرف هل يتعلق اطلاق الصواريخ فعلاً بطموحات غزو الفضاء؟ كنا نسأل: ماذا يعني ان يكون للمرء حلم كهذا في لبنان الستينات؟ لم نرد فقط فيلماً عن الحلم بل عن فكرة تقدير الاحتمالات المستقبلية لهذا المشروع.

- خليل: كنا خرجنا حديثاً من تجربة "بدّي شوف"، حيث ناقشنا العلاقة بين الوثائقي والروائي. هذه الحكاية كانت تسمح لنا بأن نؤسس خطاباً على العلاقة بين "ما يمكنك ان ترى" و"التخيل الذي يتيح لك ان ترى". مصادفة الاكتشاف تحولت فجأة الى شيء ملموس وواضح. شعاره: كيف يمكن المشاهد أن يصدّق مشروعاً كهذا، في حين أننا نحن حتى كنا نشك فيه؟

■ بدءاً من اي مرحلة، بدأت تنشأ فكرة ادراج عملية انجاز الفيلم في الفيلم؟

- خليل: خلال التصوير تغيّر الفيلم كثيراً ثم كلياً على طاولة المونتاج. اعيدت كتابته. تغيرت البنية مرات عدة. لم نكن نريد عملاً كلاسيكياً، بل كنا نطمح الى عمل تجريبي فيه بعض الميلانكوليا. حتى تاريخ بدء التقاط المشاهد كنا نعتقد ان عدم وجود صور لإطلاق الصواريخ هو الذي يمنع الناس من تذكر هذا الانجاز. خلال التصوير، اكتشفنا ان هناك الكثير من الصور المخبأة. عادة، يتزود المخرج المادة ثم ينطلق في التصوير. هنا عملنا بعكس ذلك.

- جوانا: بعد فترة من انطلاقنا بالتصوير، كان لدينا اقتناع بأننا لن نجد ما يلزمنا من وثائق بصرية نستند اليها الا في ارشيف الصحف والتلفزيونات. اعتقدنا لوهلة أن فيلمنا سيقتصر على فكرة "كيف فقدنا الدليل البصري الذي كان يثبت وجود هذا المشروع". هذه الفكرة امتداد لعملنا الذي يتمحور على كيفية كتابة التاريخ. عندما دخلنا منزل مانوغ ورأينا ما لديه من أرشيف، اقتنعنا بأن في حوزتنا فيلماً كامل العناصر. وهنا يختلف مع طريقة عملنا عادة، اذ هناك دائماً ثغر في متن الأعمال التي ننجزها. الفيلم في شكله النهائي فرض نفسه علينا وحمّلنا امانة: بدءاً من تلك اللحظة لم يعد في امكاننا الا ان ننقل الحكاية الى الشاشة.

■ ولكن، ماذا تمثل لكما هذه الحكاية التي لم تكتمل فصولها؟ الا يمكن اخذها كاستعارة عن سيرة لبنان في النصف الثاني من القرن الفائت؟

- خليل: لا أحبّ طرح الفيلم باعتباره استعارة، ولكن لا مشكلة عندي اذا اعتبره الناس كذلك. شخصياً، لا اعمل على استعارة، بل على واقع محدد. لا احاول ان أكون "ميتافوريا"، بل افتراضياً: انا أكثر ميلاً الى روبير بريسون من مخرج يريد ان يطبق على الواقع صورة مسبقة في رأسه عن مكان معين.

■ طيب، الم تخشيا انجاز فيلم شوفيني مملوء بالحس الوطني والعنفوان؟

- جوانا: بلى، بالتأكيد. الخوف كان موجوداً على الدوام. ولكن كان يعجبني العمل على هامش الأفكار الوطنية. بدأ مشروع الصواريخ عام 1960 وانتهى عام 1967. هذه الفترة من تاريخ منطقتنا تهمنا جداً. كبرنا في هذا الجو الذي سادته الايديولوجيات، وهذا الفيلم محاولة لتفكيك هذا الجو. كنا نريد مقاربة نقدية ازاء الأفكار الوهمية التي ورثناها من هذه المرحلة. عندما استعمل مطلقو الصواريخ العلم اللبناني وكتبوا على الصاروخ كلمة "أرزة"، كان لهذا بالنسبة اليهم دلالات اخرى. اليوم، تغير معنى الأشياء. لذلك، كان مهماً ان نعلق بالصوت ونأخذ الحكاية الى مكان آخر، لمعرفة صداها في حاضرنا. لا يمكن التحدث عن وطنية: صحيح ان المشروع انجز على أرض لبنان، لكن اصحابه جاؤوا من أماكن اخرى: مانوغ جاء من القدس وآخرون من العراق وسوريا.

> عندما استعمل مطلقو الصواريخ العلم اللبناني وكتبوا على الصاروخ كلمة "أرزة"، كان لهذا بالنسبة اليهم دلالات اخرى. اليوم، تغير معنى الأشياء

- خليل: ثمة سوء تفاهم. اليوم، لا يُمكن النظر الى صاروخ الا باعتباره أداة دمار. لم يكن كذلك في الماضي. لصواريخ المرحلة تلك معنى آخر، على الاقل في ذهن مانوغ والجامعة التي دعمت مشروعه. أردنا استرداد المعاني. هناك ايضاً فكرة الحلم. الحالم في الستينات كان الشخص الذي يريد تغيير الواقع. اليوم، اذا قلت انك حالم، صُنّفت مباشرة في عداد الذين باتوا خارج الواقع. اذا عدنا الى بعض الفترات السابقة من التاريخ، فالهدف اعادة تحديد المصطلحات. لا يمكن ان يكون الفيلم وطنياً لأنه لم تكن ثمة خيمة وطن منصوبة فوق رؤوس مطلقي الصواريخ. هؤلاء خارج الهويات الضيقة. وطنهم العلم.

- جوانا: المشكلة في لبنان ان كل شيء مشطور شطرين. عليك ان تكون إما من هذا المعسكر وإما من ذاك. هذه الثنائية لا تناسب شخصيتي ولا عملي. هذا الفيلم كان ايضاً للقول انه يجوز وجود مشروع وطني لكن بهدف علمي. خطابنا هذا يتأكد في الخاتمة (مشهد التحريك) عندما نتعرف الى القائد العلمي، على الصعيد الذاتي واستطراداً، لا أحد يمثلني في لبنان. في بالي بدائل أخرى، وهذا الفيلم يقترح هذا البديل، برغم انه قد يكون طوباوياً.

■ مشهد التحريك، يمكن قراءته افتراضياً، انطلاقاً من قاعدة الـ"لو": لو نجح المشروع الفضائي وتطور، لو أخذ التاريخ اللبناني منعطفاً آخر... ولكن، ألم يكن اقحام ثورات الستينات في سياق الفيلم طريقة لربطه بواقعنا الحالي؟

- جوانا: بدأ تحضير الفيلم عام 2009، وانطلق التصوير في 2010. يعني بدأنا قبل اندلاع الثورات. لكن، ثمة أشياء تحصل خلال المونتاج لا يمكن تجاهلها. تخيّل لو انجزنا هذا الفيلم الذي يتكلم عن الحلم، من دون أن نتطرق الى الغليان الثوري الذي حصل في الستينات! ماذا كان ليُقال حينئذ؟ مهما فعلت، فسيكون النقد جاهزاً لاقتناصك. من المصادفات أنه خلال المرحلة الأخيرة من المونتاج، بدأت الثورة في تونس. كنا نحاول نقل صاروخ من مكان الى آخر تحية للحالمين، فصرنا نرى عبر التلفزيونات اناساً ينزلون الى الشوارع وهم ايضاً لديهم حلم يرغبون في تحقيقه.

- خليل: عندما بدأنا في التفكير عن السبب الذي دفع الناس الى نسيان مشروع الصواريخ، لاحظنا اشياء كثيرة، منها ما نقل الينا ولا اعرف اذا كان دقيقاً: انهيار الأحلام ما بعد حرب 67. بعد الهزيمة، باتت لدينا تركيبة سلطوية جديدة في المنطقة. واعتقد ان اكثر الديكتاتوريات التي سقطت في السنوات الخمس الأخيرة، تأسست في اعقاب الهزيمة. وكأن فكرة الحلم تجمدت او على الاقل تغير معناها.

- جوانا: لا اعرف اذا كان الحلم تجمد حقاً، لكن كان هناك بديل وفجأة لم يعد بتلك الأهمية. هناك شيء تغير. ايا يكن، ليس ثمة انغلاق في الفيلم على فكرة معينة: قد يأتي احدهم ليقول ان 67 كانت بداية لشيء جديد ومختلف، وقد يكون على حق. الأهم هو فتح النقاش. ولكن ما هو أكيد أن 67 تاريخ مفصلي لأنه تاريخ توقف اطلاق الصواريخ. أهي مصادفة؟ أنت تعرف ان أفلامنا لا تتضمن أجوبة جاهزة. نترك دائماً فسحة يملأها المشاهد، وهذه الفسحة مخيفة بصراحة، لأن ثمة مشاهدين يريدون أخذ الفيلم الى اسقاطات لا تعجبني. لكنهم أحرار في جرّ الفيلم الى هذا المكان. أحبّ المشاهد الفعّال والمتحرر، الذي يناقش ويعترض. هذا هو الشخص الذي يحلو لي ان اتحاور معه.

> لا تولد لبنانياً، تتحول لبنانياً. أما ماذا يعني أن تكون لبنانياً، فهذا عليك تحديده بنفسك

■ بم تصف علاقة المشاهدين الأجانب بموضوع ذي هوية لبنانية ومحلي الى هذا الحد؟

- جوانا: بصراحة، كان لدينا خوف. كنا نخشى ان يُقال "هذا فيلم يعني اللبنانيين ولا يعنينا". بيد انه بعد جولاتنا على المهرجانات اكتشفنا ان الفيلم يروي شيئاً آخر (...).

- خليل: الهوية بالنسبة الينا شيء في طور التكوين. هويتي مختلفة عن هويتك. الهوية شيء متخيل. عندما يقول جاك لاكان "لا وجود للمرأة"، يقصد انها من صنع الخيال. لا تولد امرأة، تتحول امرأة. لا تولد لبنانياً، تتحول لبنانياً. أما ماذا يعني أن تكون لبنانياً، فهذا عليك تحديده بنفسك. في هذا الفيلم ندعو الى مشروع الفرد. مشروع الصواريخ في بلد مثل لبنان لا يمكن ان يكون مشروعاً رسمياً. على الأفراد ان يلتقوا بعضهم بالبعض الآخر ويحلموا معاً، من دون ان يسحق الاجتماع فرديتهم. لدى الأفراد في لبنان مشكلة ليظهروا افراداً. من جهة اخرى، على الآخرين ان يفهموا اننا كسينمائيين لسنا سفراء لبنان في الخارج. انا في بحث دائم عن نفسي وبالكاد امثل ذاتي. فكيف تريدني ان امثل اللبنانيين جميعاً. كل أفلامنا تدور حول كيفية استعادة الانسان فرديته في مجتمع شائك كهذا.

hauvick.habechian@annahar.com.lb

(■) "النادي اللبناني للصواريخ" يُعرض في "متروبوليس".

الخليج أمام تحدّي السينما!